العلاقات

بين المسلمين والمسيحيين في الحبشة في العصر الحديث

للأستاذ زاهر رياض

استطاعت حملات الامبراطور جلاوديوس (١٥٤٠ – ١٥٥٨) التي ساعده فيها البرتغاليون أن تقضي على ثورة الامام احمد بن ابراهيم فتشتت المسلمون بعد قتله في أجزاء الحبشة المختلفة ، واضطر كثير منهم الى الهجرة طالبين الأمان والفرار بحياتهم . وانجابت الغشاوة التي كانت تخيم على أعين الأحباش فأخذوا يعودون الى أحضان كنيستهم ، بعد أن أرغمهم هذا الطاغية على اعتناق الإسلام .

محارب حبشي
على الطريقة القديمة

ولكن الإسلام رغم ذلك ظل رمز الثورة على الحكومة المركزية ، فأخذ في اعتناقه بعض أفراد من القبائل التي لم ترض من سيادة الحكومة الأمهرية فاعتنقته – علاوة على معتنقيه الأصليين من العرب والصومال – بعض قبائل الجالا ، والولو والجوراجي على أنه مظهر من مظاهر الثورة على الحكم الأمهري ولم يعد الإسلام ديناً يجمع العرب والصومال غرضه القضاء على المسيحية والحكم المسيحي ، بل أصبح وحدة اجتمعت عليها القبائل الناهضة سواء منها من أسلم أم لم يسلم وغرضها جميعاً القضاء على السلطان الأمهري الذي يحاول أن يفرض نفسه عليهم .

وكان القضاء على قوة المسلمين المتجمعة تحت لواء الامام احمد بن ابراهيم وقضاءها في

ذلك فرصة أعطت الحكومة الامبرية المركزية أملاً في القضاء على جميع المنافسين سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين. ولذا اتخذ النزاع في العصر الحديث شكلاً قبليًا تميز باتحاد العناصر المتنافسة في ثورتها على الحكومة.

ولكن المسلمين الأولين كانوا يفهمون المسألة على وجه آخر، فقد ورثوا الحقد من أسلافهم على الحكومة وعلى المسيحية خصوصاً، وقد عاد المسيحيون الذين كانوا قد أسلموا إلى ديانتهم المسيحية بعد القضاء على حركة الامام أحمد بن ابراهيم وكانوا عدداً ليس باليسير، فنظر إليهم المسلمون والى غيرهم من المسيحيين كأنهم مرتدون، فامتنعوا عن التعامل معهم على أي وجه من الوجوه، فازدادت الجفوة بينهم وسرى هذا الشعور الى المسلمين الجدد وأورثوه أولادهم، إلا أنهم في نفس الوقت ما كانوا يترددون في أن يمدوا أيديهم الى الثوار المسيحيين أو الوثنيين أو اليهود، إذا ما كان غرضهم الثورة على الحكومة ومحاولة تحطيمها. ولم تكن الحكومة من جانبها لتتردد في القضاء على هؤلاء الثائرين مهما تختلف قبائلهم ودياناتهم. فقد أخذ الامبراطور جلاوديوس في مهاجمة قبائل الجالا التي كانت على قسط وافر من البداوة، وكان قد استقر بعضهم قرب النيل الأزرق من جهتي الشرق والجنوب فتغلب عليهم وحمل معه أولادهم وبناتهم واتخذهم رقيقاً له. وعين حكاماً على بلادهم وجعل رؤساءهم يدفعون له الجزية له. وظل طوال حكمه يراقبهم ويعمل على شل حركتهم واخضاعهم لسلطانه خضوعاً مباشراً كما أخذ في مراقبة فلول المسلمين الذين خيل اليهم أن انشغال الامبراطور في حروب الجالا قد يتيح لهم فرصة التجمع من جديد واحداث الاضطراب في البلاد واستعادة ما كان لهم من قوة تحت قيادة القائد نور.

ولكن الامبراطور رغم مشاغله العديدة استطاع أن يهاجمهم غير مرة ويهدم قلاعهم ويجردهم من كل قوة. وداوم خلفاء جلاوديوس من بعده على أن يوجهوا جهده ويكيلوا لبقايا المسلمين الضربات القاسية. فقد انتصر سرصا دنجل (١٥٦٣ — ١٥٩٥) على أهل هدية حتى قدموا له ولاءهم كما أخضع قبائل كافا التي استقرت في غرب وجنوب شوا لسلطة التاج الحبشي. ومعنى ذلك أن أباطرة الحبشة في العصور الحديثة عملوا على توطيد سلطة الملكية المطلقة واخضاع جميع القبائل الأخرى لسلطانهم المباشر. ولو أن بعضهم فقد حياته في هذا

السبيل الا أن ذلك لم يثن خلفاءهم عن أن يسيروا في نفس الطريق ليصلوا الى غايتهم وكانت عدتهم في هذا الامر جيوش حديثة نقلتها الأيدي الأجنبية وبدلت أسلحتها من السيف والرمح الى البنادق والمدافع . ولكنا نلاحظ أن الجيوش الحبشية لم تحاول في أي مرة من المرات في هجومها أن تنحدر من ناحيتي الشمال أو الجنوب أو الغرب الى الأرض السهلة التي تحيط بالهضبة الحبشية رغم ما كان يسكنها من قبائل اسلامية على درجة كبيرة من التأخر تغري بالهجوم عليها ، بل قصرت محاولات الاخضاع على ما كان يسكن الهضبة الحبشية والشريط الصحراوي التي يحدها من ناحية الشرق . ومعنى ذلك أن الامبراطور كان يشعر أن بلاده هي هذه الكتلة الجبلية التي تنتهي بسهول السودان من الشمال والغرب ولكنها تمتد من ناحية الشرق الى ساحل البحر واذا ترجمنا ذلك الى لغة الحديثة أمكننا أن نقول إن الحدود السياسية للحبشة أخذت تظهر الى حيز الوجود بشكل واضح ، وان القومية الحبشية أخذت طريقها الى الظهور وأخذت تكيل الضربات القوية لكل من يقاومها ويقف في طريقها ، سواء كان مسلماً أو غير مسلم . ففي الوقت الذي كان الأباطرة الأحباش يهاجمون المسلمين للجالا في شرق البلاد والكالا في غربها لم يترددوا عن مطاردة اليهود تحت اسحق حتى هزموه واضطروه الى الالتجاء الى ترعور باشا حاكم مصوع .

***

وهنا تبدو ملاحظة لا بد من تسجيلها وهي أن مثل هذه الحوادث التي تسرقيها مثل هذه الروح . روح الثورة من القبائل المقهورة ومحاولة الاخضاع من السلطة المركزية الحاكمة كانت تجري في أوربا في ذلك الوقت فكأن حوادث الحبشة كانت تسير في نفس الطريق الذي كانت تسير فيه الحوادث الأوربية المعاصرة ، تدفعها نفس الدوافع التي تدفع زميلتها كي تحاول أن تصل إلى نفس النتائج التي تحاول الأخرى الوصول اليها .

اما الأتراك فقد أيقنوا بعد هزيمة الامام احمد بن ابراهيم وتشتت المسلمين ، ان سلاح الدين لا يصلح في الحبشة ، فقد رأوا بأعينهم كيف ادى استعمال هذا السلاح الى اتحاد المسيحيين جميعاً مهما تختلف قبائلهم تحت سلطة الامبراطور لمقاومة هذه البدعة الجديدة في تاريخهم حتى اذا انتهت تلك الحروب الدينية عاد المسيحيون الى خلافهم القبلي الأول، وزاد هذا

الخلاف اشتعالاً بانضمام القبائل غير المسيحية من الجلا وانوالو والكافا والجوراجي الى صفوف الثائرين، فتعمدوا بالاستقرار على الشاطىء الشرقي للحبشة حول المدن الساحلية، كسواكن ومصوع، وأخذوا يرقبون الحوادث علهم يستطيعون ان يتدخلوا فيها لما فيه مصلحتهم. فمدوا البهرنجش اسحق بالمدافع والبنادق في ثورته ضد جلاوديوس وميناس، ولم يترددوا في ارسال فريق من الفرسان الاتراك لتدريب قواته على القتال، بل والمحاربة في صفه.

* * *

أما البرتغال فقد كانوا أقل وأبطأ من الأتراك إدراكاً لهذه الحقيقة، فقد خيل إليهم أن البلاد قد خلصت لهم بعد أن تغلبت على هذا الخطر التركي الاسلامي بفضل مساعدتهم وحدهم، فعندما عاد الامبراطور جلاوديوس الى قصره عام ١٥٥٥ بعد انتصاره على القائد نور، وجد في انتظاره بعثة من ملك البرتغال قد وصلت اثناء غيابه تحمل هدايا من الملك. وكان ضمن أفراد البعثة مبشران يسوعيان يحملان خطاباً من حاكم الهند وينحصر طلبهما في أن ينضم الأحباش الى الكنيسة الرومية، ويقطعون علاقتهم بالكنيسة المصرية التي لا تستطيع حمايتهم من الخطر الخارجي، ولا حماية نفسها من العنت الذي كانت تلاقيه في مصر.

ولكن تحول شعب بأسره من مذهب الى آخر في لحظة واحدة أمرٌ لا يسلم به عقل، فأراد الكاثوليك أن يكونوا منطقيين مع أنفسهم، فبدأوا بنشر عدة كتب باللغة الأمهرية شرحوا فيها عقيدتهم ومذهبهم وقارنوه بالمذهب الأرثوذكسي، فشعر الأحباش وعلى رأسهم كهنتهم أنهم أمام هجوم منظم يرمي الى النيل من كنيستهم وتحقيرها، فلم يكن بد من مقابلة الهجوم بمثله، فولوا وجوههم شطر الكنيسة المصرية لتمدهم بالكتب التي يستطيعون ترجمتها الى الأمهرية لمقابلة هذا السيل الذي لا ينقطع من الكتب الكاثوليكية المترجمة. ولم تتردد الكنيسة المصرية عن أداء واجبها في هذه الظروف كاملاً، فأمدتهم بما يطالبون. ولم يكن الكاثوليك ينتظرون كل هذا الجدل وكل هذا العناء في سبيل تحويل هذا الشعب الذكي المجيل عن عقيدته، ولذا لجأوا الى طريق جديد هو طريق القوة، فلم يترددوا

في تشجيع الثوار ومدهم بالسلاح ، ولم يترددوا أيضاً في أن يمدوا أيديهم الى المسلمين والاتراك يساعدونهم في احتلال أجزاء من البلاد مع انهم ما أتوا إليها إلا للقضاء عليهم . فخرجت المسألة إذن من الطريق الديني وأصبحت صراعاً سياسيًّا محضاً بين الحكومة المركزية الامهرية من جهة ، وبين الثائرين من القبائل الأخرى سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة، يؤيدها الأتراك والبرتغاليون . ويظهر أن معونة هؤلاء الكاثوليك للثوار كانت واضحة إلى حدٍّ أن دعا الامبراطور ميناس (١٥٥٩ — ١٥٦٣) المطران الكاثوليكي وأمره في لهجة قاسية أن يوقف نشاطه ، وأن يترك البلاد وذلك بالرغم مما كان يسبغه عليه قبل ذلك من حماية ورعاية .

ولكن لم يلبث هؤلاء الكاثوليك أن وجدوا في الملك سوسنيوس (١٦٠٧ — ١٦٣٢) أكبر عون لهم على تنفيذ ما خيل إليهم أنه السياسة البرتغالية الكاثوليكية في الحبشة حين خيل الى الامبراطور أنه يستطيع أن يتغلب بهم على العناصر المناوئة ومنهم المسلمين، وأن يخرج عن طريقهم الى العالم الخارجي ليتصل بالعالم المتمدين اتصالاً ذا منفعة له .

ولكن هذه السياسة أغضبت رجال الدين الوطنيين، كما أدت الى ثورة العناصر المحافظة في الدولة ، وجعل الملك همه اخضاع هؤلاء الثائرين من قومه بالاضافة الى الثائرين من القبائل الأخرى الذين وجدوا من الأتراك كل مساعدة . ولذا شهد عصر سوسنيوس اضطراباً غير مألوف تحطمت على أثره حياة البلاد الاقتصادية تحطماً قاسياً جعل الملك يصمم على الرجوع عن سياسته الدينية . فأصدر مرسوماً أعاد الى شعبه مذهبه وطقوسه كما أعلن ولده فاسيلاداس خلفاً له . ولم يكد هذا يرتقي العرش حتى أمر البطريرك الكاثوليكي وقساوسته أن يجتمعوا في فريمونا بالقرب من اكسوم في انتظار ما يأمر به الملك . ثم نصحه بأن يترك البلاد ليخلي مكانه للمطران المصري الذي بعث الى مصر في طلبه . وخاف أن يعاود الكاثوليك العودة من جديد فتحالف مع الحاكم التركي في مصوع وسواكن على أن يراقبوا له الشواطىء ليمنعوا عودة هؤلاء المشاغبين، وأرسل الى اليمن يطلب رسولاً يستطيع أن يتفاهم معه على أساس علاقات مستديمة، ففهم اليمنيون والمسلمون من ذلك أنها رغبة من الملك في اعتناق الاسلام ، فأخلدوا الى السكون ووهبوا صداقتهم للملك .